النقد النسقي : المفهوم والمرجعيات

نصوص دوسوسير والشكلانية الروسية

الأهداف:

التعرف على المفاهيم الأساسية للنقد النسقي وما تتضمنه المدارس والاتجاهات التي دعمت هذا الاتجاه علميا، لكي يتمكن الطالب من الوصول إلى القدرة التي تجعله يفرق بين كل هذه المفاهيم، ونصوص دوسوسير والشكلانية الروسية هي الانطلاقة الفعلية لهذا النقد، ملتزمين بأهداف البرنامج المقرر.

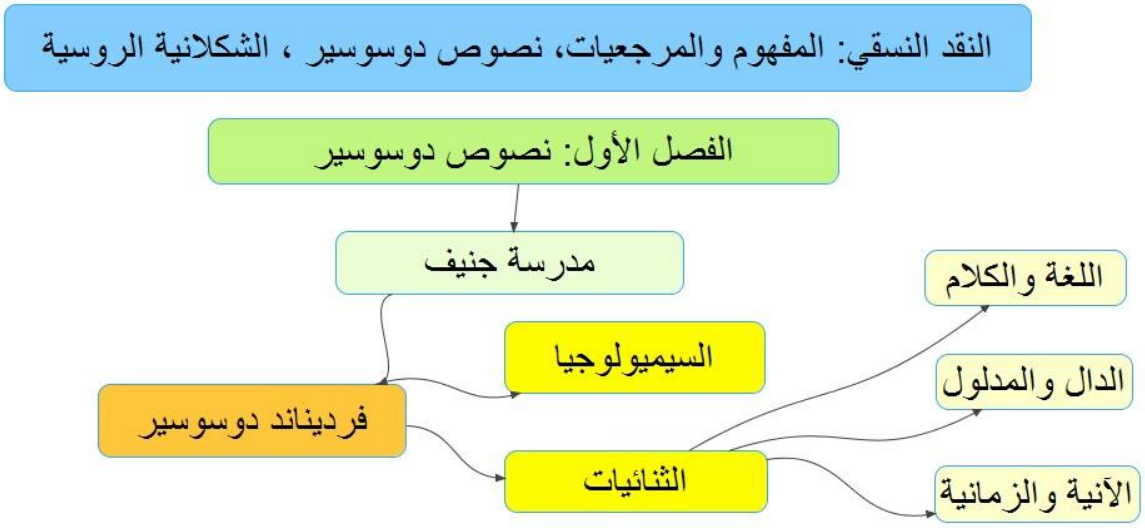

I - الفصل الأول نصوص دوسوسير

1- روافد النقد النسقي

1-1 مدرسة جنيف:

كانت المراحل الأولى للنقد النسقي قد تضمنت مجهودات عديدة لباحثين كان لهم الأثر المهم في بلورة هذا الاتجاه، على غرار نصوص دوسوسير من خلال مدرسة جنيف، حيث كان لها أثر مهم في بناء الفكر البنيوي، وذلك بفضل المجهود الذي قام به تلامذته شارل بالي وألبير سيشهاي في جمع محاضراته ونشرت عام 1916 ومنها ظهرت ثنائيات دوسوسير التي شكلت المهد الفكري للمنهج البنيوي.

هي التي أعطت الشرارة الأولى للبنيوية (والفكر الألسني عموما) والفضل –كل الفضل- في ذلك إنما يعود إلى الرائد الأول للألسنية (الذي يعادل ريادة "فرويد" للنفسانية، و"ماركس" للجدلية المادية..) العالم اللغوي السويسري فرديناندوسوسير 1857-1913 ، الذي كانت محاضراته في جنيف تجسيدا لهذه الريادة، والتي جمعها طلبته، بعد وفاته، في كتاب "Cours de linguistique général" ومع هذه المدرسة ظهرت فكرة "النظام" أو النسق "Systemes" وثنائيات: (اللغة والكلام) و(الدال والمدلول) و(الآنية والزمانية) وغيرها من المفاهيم التي شكلت الجوهر البنيوي بعد ذلك.

1-1-1 فيرديناند دوسوسير

فرديناند دي سوسير 1857-1913

عالم لغوي سويسري شهير. يعتبر بمثابة الأب للمدرسة البنيوية في علم اللسانيات. فيما عدّه كثير من الباحثين مؤسس علم اللغة الحديث. عُني بدراسة اللغة الهندية، الأوروبية. وقال إن اللغة يجب أن تعتبر ظاهرة اجتماعية. من أشهر آثاره: `بحث في الألسُنيّة العامة` (كتبه باللغة الفرنسية ونُشر عام 1916، بعد وفاته) وقد نُقل إلى العربية بترجمات متعددة ومتباينة.

فرديناند دي سوسور من أشهر علماء اللغة في العصر الحديث، واتجه بفكره نحو دراسة اللغات دراسة وصفية باعتبار اللغة ظاهرة اجتماعية، وكانت اللغات تدرس دراسة تاريخية، وكان السبب في هذا التحول في دراسة اللغة هو اكتشاف اللغة السنسكريتية.

ولد دي سوسور في جنيف، وكان مساهما كبيرا في تطوير العديد من نواحي اللسانيات في القرن العشرين. كان أول من أعتبر اللسانيات كفرع

من علم أشمل يدرس الإشارات الصوتية. اقترح دي سوسير تسميته سيميولوجي، ويعرف حاليا بالسيميوتيك أو علم الإشارات.

1-1-1-1 السيميولوجيا

لقد بشر دي سوسير بمولد السيميولوجيا وحدّد موضوعها بكل علامة دالة، وجعل اللغة جزءاً من هذه العلامة الدالة ، إذ عد علم اللغة جزءاً من علم السيميولوجيا العام . يقول : " اللغة نظام إشاري يعبر عن الأفكار .. وبذلك يمكن مقارنته بالنظام الكتابي وبالنظام الألفبائي للصم والبكم وبالنظام الإشاري النقشي.. إن العلم الذي يدرس حياة الإشارة في مجتمع من المجتمعات يمكن أن يكون جزءاً من علم النفس الاجتماعي ، وبهذا سوف أدعو هذا العلم سيميولوجيا (Semiologie) " .

إذن ، فاللغة ، وفق تعريف سوسير ، نظام من العلامات تعبر عن الأفكار مثلها مثل أنظمة أخرى تشبهها ، كأبجدية الصم ، والإشارات العسكرية وغيرها، ولكن اللغة هي أهم هذه الأنظمة العلاماتية .

إن السيميولوجيا تنطلق من ثم من " نظام جديد للوقائع " يعدُّ اللسان نسق دلائل معبرة عن أفكار ، لتكتسب من ثم وظيفة رمزية داخل المجتمعات المختلفة. ولما كانت هذه الوقائع تشتمل داخلها على عدة أصناف من الدلائل ، فإن الدلائل اللسانية ليست سوى فرع من هذا العلم العام . فالدلائل اللسانية لا تشكل إلا فرعا من عموم الدلائل ، فهي علم خاص بنوع محدد من الدلائل .

أ- ثنائيات دوسوسير

نشر العمل الأكثر تأثيرًا لسوسور، محاضرات في اللسانيات العامة، بعد وفاته في عام 1916 على أساس ملاحظات مأخوذة من محاضراته في جنيف. أصبح كتاب المنهج واحدًا من الأعمال اللغوية الأساسية في القرن العشرين، وتطرق فيه إلى ثنائياته الشهيرة.

1- اللغة والكلام

فرّق دي سوسير في هذا الشأن بين ثلاثة مصطلحات:

* اللغة/ Langage: ظاهرة إنسانية لها أشكال متعددة تنتج من الملكة اللغوية.
* اللسان/ Langue: هو جزء معين، متحقق من اللغة بمعناها

الإنسانيّ الواسع، وهو اجتماعي, عرفي, مكتسب. ويشكل نظاما متعارفا عليه داخل جماعة إنسانية محددة
مثال ذلك : اللسان العربي، الفرنسي...
* الكلام/ Parole: مفهوم فردي ينتمي إلى اللسان، ويشمل ما يعتري أداءَ الفرد للسان من ملامحَ فردية.

2- الدال والمدلول

يستخدم دي سوسير مصطلح علامة Signe للدلالة على الكلمة لفظا ومعنى، والرمز اللغوي له وجهان, لا ينفصل أحدهما عن الآخر، هما:
- الدال Signifiant وهو الصورة الصوتية
- المدلول Signfié وهو الصورة المفهومية التي تعبّر عن التصور الذهني لذلك الدال.
وتتم الدلالة signification باقتران الصورتين الصوتية والذهنية، وبحصولها يتم الفهم.
يقول دي سوسير:« إن العلامة اللسانية لا تربط شيئا باسم , بل تصورا بصورة سمعية، وهذه الأخيرة ليست الصوت المادي الذي هو شيء فيزيائي صرف، بل هي الدفع النفسي لهذا الصوت ... » ويقول: « ويمكن تشبيه اللغة بورقة يكون الفكر وجهها الأول والصوت وجهها الآخر، ولا نستطيع فصل أحد الوجهين من دون الآخر في آن. والأمر نفسه بالمقياس إلى اللغة، إذ لا يمكن عزل الصوت عن الفكر ولا الفكر عن الصوت, كما أننا لا نصل إلى ذلك إلا بتجريد يؤدي بنا إلى علم النفس الصرف, أو إلى علم التصويتية الصرف. »

3- الآنية والزمانية

تتعلق هذه الثنائية بالمناهج اللسانية في دراسة اللغة؛ حيث يجعلها في منهجين:
* الدراسة في زمن آني: التزامني, السكوني, الوصفي, التعارضي, التواقتي, ونحو ذلك. وموضوعها: "حالة توازن النظام في نقطة معينة من الزمان.
الدراسة في مراحل زمنية متتالية: تعاقبي, تطوري, تاريخي, زماني, وتهتم بـ "التغيرات اللسانية "؛ يقول دي سوسير بشأن

ذلك: « ستهتم الألسنة التزامنية بالعلاقات المنطقية والنفسية الرابطة عبارات متزامنة، مشكلة في ذلك منظومة كما يدركها الشعور الاجتماعي الواحد »،« وعلى نقيض ذلك فستدرس الألسنية التزمّنية العلاقات التي تربط العبارات المتعاقبة التي يعزّ على شعور اجتماعي واحد إدراكها، والتي يحل بعضها محل البعض الآخر، وذلك دون أن تشكل منظومة فيما بينها »

II- الفصل الثاني : الشكلانية الروسية

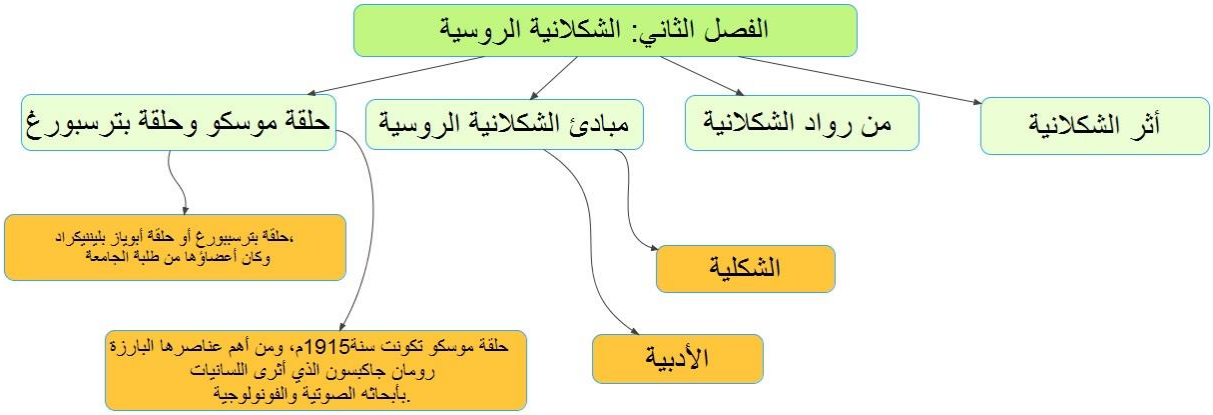

إن ما قدّمه الشكلانيون الروس يعتبر من أهم التأسيسات لفضاء البنيوية، فمن خلال مجهوداتهم وما قدمته حلقة براغ (دراسة المظاهر الصوتية للغة)، انبثقت عن هذا المنطلق دراسات متعددة تكشف خصوصية هذا التوجه الجديد في البحث النقدي، فمن «المعلوم أن مدرسة الشكليين الروس ظهرت في روسيا بين عامي 1915 و1930، ودعت إلى الاهتمام بالعلاقات الداخلية للنص الأدبي، واعتبرت الأدب نظاما ألسنيا ذا وسائط إشارية (سيميولوجية) للواقع، وليس انعكاسا للواقع ، ومن هنا، يظهر لنا جليا، أن مصطلح البنيوية، في بداياته، كان أول ظهور له في رحاب البحث مع الشكلانيين الروس، وذلك من خلال ما جاء «في البيان المنهجي الذي أصدره إثنان منهما (لعلهما جاكبسون ويوري تنيانوف) سنة 1928، في خصوص العلاقة بين نماذج التحليل اللغوي والأدبي»

1- مبادئ الشكلانية الروسية

مبدأ لخصه ياكوبسون قائلا:إن موضوع علم الأدب ليس هو الأدب وإنما الأدبية وبذلك حصروا اهتمامهم في نطاق النص.
المبدأ الثاني يتعلق بمفهوم الشكل، فقد رفضوا رفضا باتا ما كانت تذهب إليه النظرية النقدية

التقليدية من أن لكل أثر أدبي ثنائية متقابلة الطرفين: هي الشكل والمضمون، وأكدوا أن الخطاب الأدبي يختلف عن غيره ببروز شكله.

2- حلقة موسكو وحلقة بترسبورغ

2-1 حلقة موسكو

تكونت سنة 1915م، ومن أهم عناصرها البارزة رومان جاكبسون الذي أثرى اللسانيات بأبحاثه الصوتية والفونولوجية. كما أغنى الشعرية بكثير من القضايا الإيقاعية والصوتية والتركيبية، سيما نظريته المتعلقة بوظائف اللغة، والتوازي، والقيمة المهيمنة، والقيم الخلافية.

2-2 حلقة بترسبورغ

أو حلقة أبوياز بلينيكراد، وكان أعضاؤها من طلبة الجامعة. أما عن خطوط التلاقي بين المدرستين، فتتمثل في الاهتمام باللسانيات، والحماسة للشعر المستقبلي الجديد، كما عند فلاديمير مایاكوفسكي، وباسترناك، وأسيف، ومانديل شتام،...

3- من رواد الشكلانية الروسية

تينيانوف (Iouri Nikolaïevitch Tynianov)، وإيخنباوم (Boris Eichenbaum)، وشلوفسكي (Victor Borissovitch Chklovski)، وفلاديمير بروب(Vladimir ro - Iakovlevitch -)، وتوماشفسكي (Tomachevsky)، وجان مكاروفسكي(Mukarovsky)، ورومان جاكبسون (Roman Jakobson)، وميخائيل باختين (Bakhtine)، وأوسيپ بريك(Ossi- Brik)، وفينوكرادوف (Vinogadrov)، وكريكوري فينوكور(Grigoryi Vinokour)،...

4- أثر الشكلانية الروسية

لقد ترك التيار الشكلاني الروسي، والتشيكي كذلك، تأثيرا إيجابيا في ثقافة أوروبا الغربية، ابتداء من سنوات الستين من القرن الماضي، بعد ترجمة أعمال الشكلانيين الروس إلى اللغتين: الإنجليزية والفرنسية. و يعد تزيتيفان تودوروف (T.Todorov) أول من عرف الفرنسيين بالكتابات الشكلانية الروسية، كما يبدو ذلك واضحا في كتابه (نظرية الأدب: نصوص الشكلانيين الروس) (1965م).
وقد ساهمت جوليا كرستيفا (Julia Kristieva)، بدورها، في تعريف الغربيين بكثير من

التصورات الشكلانية، خاصة مفهوم التناص، وكانت تستند، في بحوثها النظرية والتطبيقية، إلى التوفيق بين اللسانيات والتحليل الماركسي، قصد إيجاد التجاور بين الداخل والخارج. ويعني هذا أنها أعطت أهمية كبرى للعلامة في علاقتها بالمرجع المادي.

ذا، ولقد استعملت كريستيفا مصطلحات سيميوطيقية للوصول إلى التدليل في النصوص المعللة، فقد استبدلت المعنم أو السيم Séme الموظف من قبل مدرسة باريس السيميوطيقية بمصطلح سيمانااليز Sémanalyse. أي: التحليل المعنمي أو السيمي. كما ركزت كريستيفا على الإنتاج الأدبي بدل الإبداع الأدبي. لذا، لم يكن هدفها الدلالة، بل المدلولية. لذلك، وظفت مصطلحات ذات بعد ماركسي، كالمنتج، والممارسة الدالة، والمنتوج، على عكس المصطلحات الموظفة في الفكر الرأسمالي واللاهوتي، مثل: المبدع والإبداع الفني.

ولا ننسى التأثير الكبير لكتاب (مورفولوجيا الحكاية العجيبة) لفلاديمير بروب على علم السرد الأوروبي؛ وما أثاره من ضجة أدبية، وسجال نقدي لافت للانتباه، خاصة مع كلود ليفي شتروس.